بسم الله الرحمن الرحيم

مؤسسة آل البيت الملكية للفكر الإسلامي

المؤتمر العام الخامس عشر لأكاديمية آل البيت الملكية

١٨ـ٢٠ شوال ١٤٣١هـ الموافق ٢٧ـ٢٩ أيلول/سبتمبر ٢٠١٠م

البيئة في الإسلام

البيئة في ضوء القرآن الكريم والحديث الشريف والتراث العربي

الأستاذ الدكتور هشام نشّابة

بسم الله الرحمن الرحيم

مؤسسة آل البيت الملكية للفكر الإسلامي

عمّان- المملكة الأردنيّة الهاشميّة

بسم الله الرحمن الرحيم

البيئة في ضوء القرآن الكريم والحديث الشريف والتراث العربي

عندما طلبت مني مؤسسة آل البيت أن أكتب في موضوع الإسلام والبيئة رأيت نفسي غير مؤهّل للخوض في هذا المضمار. وتساءلت عن الدّوافع التي جعلت المؤسّسة تقحم الإسلام في علم حديث ما تزال أبوابه مشرعة على المستجدات. فعزوت ذلك إلى التيّار الفكري الذي يرى للإسلام إسهام في كلّ باب من أبواب العلم، وأنّه واضع الأسس العامّة والكليّات للعلوم كافّة. وهو تيّار له أنصاره الكثر ومبرراته الجديرة بالاعتبار.

وتشاء الصّدف أن يصدر في الفترة الأخيرة كتاب جليل للأستاذ الكبير الدّكتور طريف الخالدي عنوانه (Images of Muhammed New York, Doubleday 2009) وهو كتاب ممتع بأسلوبه، غني بمعلوماته، فريد في حسن تقديمه للرّحمة المسداة عليه الصّلاة والسّلام تناول جوانب من حياته قلّ أن سلّط عليها الضّوء علماء السّيرة من القدامى والمحدثين. وفي الكتاب استطرادات في علم الأدب، وأدب العلم وأدب السيرة، والأخلاق والاجتماع.

وقد قسّم الدّكتور الخالدي كتابه الجليل فصولاً تناولت سيرة النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام كمشرّع، ومعلّم للآداب، وزاهد، ونموذج للنّاس، وبطل وداعية للتحرّر. فقلت في نفسي: ماذا لو أراد الخالدي أن يتحدّث عن النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام كموجّه بيئي؟ ولما لا أحاول أنا أن أقوم بهذا البحث فأصيب بذلك هدفين في آن معاً: الأوّل، التّعبير عن تقديري للدّكتور طريف الخالدي بمحاولة السّير على منواله، ثمّ، أستجيب لدعوة مؤسّسة آل البيت في الكتابة عن موقف الإسلام من قضايا البيئة؟

هكذا أقدمت على هذا البحث مدركاً تقصيري في تناول بحث لا يستوفي كاتبه الشّروط....

ينظر الإسلام إلى "البيئة" كآية كبرى من آيات الله المبيّنه لقدرته Y، ويستشهد الله Y بما خلق وبالنّظام الكوني وينبّه الإنسان إلى واجب احترام ما خلق والحفاظ على النّظام الذي وضعه لهذا الكون... [ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِي ٱلْمِيزَانِ] [الرحمن: 5-8]. فالإنسان مدعو، بموجب أمر إلهي في القرآن الكريم بأن يتأمّل في مخلوقات الله ويفكّر ويدرك عظمة الخالق وحكمته في ما خلق. وما هذه المخلوقات إلّا رسائل للإنسان تدعوه إلى الإيمان بخالق السّماوات والأرض وقدرته Y.

ولـمّا كان الإنسان "خليفة" الله في الأرض فهو - أي الإنسان- مدعو للحفاظ على هذه المخلوقات والتّصرّف بها في حدود ما يسمح به التّوازن بين كفيّ هذا الميزان الطّبيعي. فلا يكون هناك طغيان أو خسران. يقول تعالى: [إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ] [القمر: 49] ويقول عزّ من قائل: [وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا] [الفرقان: 2] ولذلك كان المبذّرون أخوان الشياطين. وقد نبّه القرآن الكريم الإنسان إلى سوء تقديره للأمور، إذ يحسب أحياناً أنّه يحسن عملاً في الوقت الذي يعمل سيّئاً، فقال: [قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا] [الكهف: 103- 104].

ويصل القرآن الكريم إلى أسمى مفاهيم المحافظة على البيئة عندما يضع القاعدة الشّاملة بهذا الشّأن في قوله Y: [مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا] [المائدة: 32] و المقصود في النّفس هو كلّ نفس أي كلّ حياة، والمقصود بالفساد هو كلّ ما يسيء أو يهدّد الحياة . وهو "التلوّث" الذي يشير إليه علم البيئة. ونذكر في سياق القواعد الشّامل قوله Y [... وَلَا تُسْرِفُوٓاْ] [الأنعام: 141]، وهو أمر إلهي

يقع في جوهر الدّعوة الإسلاميّة للاعتدال وهو قمّة الحكمة في المحافظة على البيئة.

فالماء في القرآن الكريم رمز الحياة ومصدرها ، [وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ] [الأنبياء: 30]، وهي الأساس في الطّهارة: [وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ] [الأنفال: 11]. وتوفر الماء شرط لنمو كلّ النّباتات [وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ] [الأنعام: 99].

ولذلك جعل الله الماء قسمة بين النّاس لا يجوز منعه عن بعضهم أو احتكاره عند بعضهم. قال تعالى: [وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ] [القمر: 28]. فلمّا شذت المجتمعات عن هذه القاعدة الإلهيّة القاضية بقسمة الماء بالعدل أصبحت الماء من أهم أسباب الحروب في العالم بل هي اليوم أهمّها قاطبة.

وقد كرّم الله النّحل والنّمل باعتبارها من آيات خلقه، كما صوّر الجنّة بما في الطّبيعة من روائع خلقه فذكر الفاكهة والأعناب والأنهار والبحار حتّى أنّ المسلم المؤمن والواعي لتراثه لا يستطيع أن ينظر إلى ما حوله إلّا مقدّراً لهذه النّعم الجليلة.

لقد أحبّ الرّسول عليه الصّلاة والسّلام الأرض ومن عليها وما عليها. فقال: «... جُعلت لي الأرضُ كلّها مسجداً وطهوراً»[1].

لذلك وجبت المحافظة على نظافة الأرض كلّها، كما يُحافَظ على نظافة المسجد حيث يقوم المسلم بأهمّ ركن من أركان الدّين. وكذلك جعل النبي عليه الصّلاة والسّلام النّظافة الماديّة من الإيمان فقال «النّظافة شطر الإيمان»[2].

وأكّد النّبيّ ما جاء في القرآن الكريم بشأن شراكة النّاس في حقّهم بالماء فقال عليه الصّلاة والسّلام: «المسلمون شركاء في ثلاث الماء والكلأ

---

(1) رواه أحمد بن حنبل 222/2 .

(2) رواه مسلم.

والنّار»[1]، وسئل رسول الله عن الشّيء الذي لا يحلّ منعه ؟ قال: «الماء»[2]. وسئل: أي الصّدقة أفضل؟ فقال : «الماء»[3]. وقال: «إماطة الأذى عن الطّريق صدقة»[4]. وأحاديثه عليه الصّلاة والسّلام التي تدعو للابتعاد عن كلّ ما هو نجس أو خبيث كثيرة حتى ليخيّل إليك أنّه يرى في الخبث الشّيطان نفسه.

كما تمثّل حبّ النّبيّ للنّظافة والطّهارة والطّيب في الوضوء والغسل والحضّ على التطيّب واستعمال السّواك والظهور بالمظهر الحسن (خذوا زينتكم ...) [5].

وتبلغ قدسية الطّهارة أوجها، بمعناها المادي والرّوحي، فيما رُوي من أنّ حياة رسول الله ρ بدأت بعمل طهارة يوم جاءه جبريل في طفولته فشقّ صدره وغسله من كلّ رجس وانتهت حياته بعمل طهارة يوم كان يفارق الحياة؛ إذ دعا عائشة رضي الله عنها أن تناوله سواكاً يستاك به قبل أن ينتقل لملاقاة ربّه[6].

ودعا عليه الصّلاة والسّلام للاقتصاد في الماء وهو مبدأ في أخلاقيّات علم البيئة الحديث فكان إذا توضّأ لم يهرق من الماء إلّا قليلاً يقول عليه الصّلاة والسّلام: «لا تسرف في الماء ولو كنت على نهر جار»[7]. ومن أحاديث رسول الله ما يجعل مياه البحر مقدّسة: «هو الطهور ماؤه الحلّ ميتتهُ» فلا يجوز تلويثها. وكذلك مياه الأنهر ومياه الآبار.

وكأني به عليه الصّلاة والسّلام في حرصه في الحفاظ على الماء يأمر بجمع مياه الأمطار لكي لا تهدر وتذهب سدى، كواجب ديني لا كمصلحة دنيويّة

---

(1) رواه أحمد بن حنبل 364/5.

(2) رواه مسلم.

(3) رواه أبو داود.

(4) رواه البخاري ومسلم.

(5) تلخيص الجبر، ابن حجر العسقلاني 287/1.

(6) انظر Khalidi,T., Images of Muhammad, op.cit, p.94

(7) أخرجه الترمذي.

وحسب. والواجب الدّيني والمصلحة الدّنيويّة في الإسلام صنوان لا يفترقان ولا يتعارضان.

وأمر بالرّفق بالحيوان حتى في دبحه، وقال: «أما علمتم بأني لعنت من وسم البهيمة في وجهها»[1]. كما نهى عن ذبحه الشّاة الحلوب: « إيّاك والحلوب»[2].

ومن الرّوايات المشهورة أنّ النّبيّ ρ رأى امرأة تسقي كلباً عطشاناً فبشّرها بالجنّة. ولم تحل نجاسة فمّ الكلب - والتي نبّه عليها الإسلام- حائلاً دون الإحسان إلى الكلب والرّأفة به، تكريماً للحياة التي تتمثّل فيه، ودفعاً للأذى عن كلّ مخلوق أياً كان شأنه.

وإكراماً للحيوان عامّة رعى الرّسول عليه الصّلاة والسّلام الأنعام في طفولته. قال: «لم يكن هناك نبي لم يرعَ الغنم». فسئل أنت أيضاً يا رسول الله، فأجاب: «أنا أيضاً»[3]. «ما بعث الله نبياً إلّا راعي غنم»، قال له أصحابه: وأنت يا رسول الله قال: «وأنا كنت أرعاها لأهل مكة بالقراريط».

وإنّ علاقة الرّسول بناقته (اسمها القصواء) حيث قال عندما كان على أبواب المدينة المنوّرة «اتركوها إنّها مأمورة»، قصّة يتجاوز مغزاها الدّيني الصّرف إلى مغزى أبعد يشير إلى حبّ الرّسول لهذه النّاقة وسائر بنات جنسها.

وأمّا الخيل والأنعام وسائر أنواع الحيوان من طير وحيوانات داجنة والأسماك في البحار، فإنّها تفيض عطفاً وحباً وحرصاً على رعايتها والعناية بها كواجب إنساني يفوق في مضمونه مفاهيم الرّفق بالحيوان التي نجدها في الأدبيّات المعاصرة.

والهدر والإفراط والتّفريط سمة بارزة من سمات العصر الحديث. فقد طغى الجشع على كلّ جوانب النّشاط الإنساني حتى بات مصدر كل علّة بيئيّة

---

(1) رواه أبو داود كتاب الجهاد، ص 57 حديث رقم 2564.

(2) رواه ابن ماجه 1061/2-1062

(3) رواه ابن ماجه 721/2.

فيه. فالحدّ من الهدر في الماء والحدّ من الإفراط في استغلال موارد الطّبيعة من معادن وثروة حيوانيّة باتا الهمّ الشّاغل لعلماء البيئة في عصرنا لما يشكّلانه من خطر على حياة المجتمعات البشريّة[1]. فرسالة الإسلام البيئيّة اليوم خاصّة وفي كلّ زمان ومكان ومجال، هي رسالة العدل والاعتدال.

وكان الرّسول عليه الصّلاة والسّلام ينظر إلى السّهول والجبال فتشعر في حديثه عنها أنّه يكنّ لها حباً، فيقف أمام جبل أحُد فيقول له: إنّا نحبك يا أُحُد... [2]. وقد لاحظ ذلك أحد المستشرقين (Gaston Wiet) فقال: "إنّ العرب عموماً يكنّون حنيناً ملفتاً إلى الصّحراء".

وقد نهى النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام عن قطع الأشجار وحضّ على غرسها وبارك العاملين في استثمار الأرض وزراعتها فقال عليه الصّلاة والسّلام: «من قطع سدرة صوّب الله رأسه في النّار»[3].

وفي وصية أبي بكر لقادة جيوش المسلمين قوله τ: "لا تقتل صبياً ولا امرأة ولا كبيراً هرماً ولا تقطعن شجراً مثمراً ولا تعفرن شاة ولا تفرقن نخلاً ولا تحرقنه....." [4].

وبعد، فسبحان الله Y! ما بحثتُ موضوعاً إلّا ورأيت في القرآن الكريم وسنّة نبيه المصطفى هادياً ومرشداً إلى الحقّ، والحمد لله رب العالمين.

إنّ ما تقدّم من هذا البحث يشير بوضوح إلى أنّ في حضارتنا الإسلاميّة، وفي حضارتنا العربيّة المتأثّرة بها في العمق، ثقافة بيئيّة تنظّم العلاقة مع الطّبيعة، ولا تعتبرها مجرد مصدر للمعاش وإنما ترى في المحافظة عليها

---

(1) انظر في هذا الموضوع : الدويري، نجوى وحيد، البيئة ، مفهومها العلمي المعاصر وعمقها الفكري التّراثي، دمشق، دار الفكر، 1425هـ/2004م. انظر أيضاً Dasmann, R.F., Planet in Peril? Man and the Biosphere Today, Penguin Books, Unesco, Paris, 1972.

(2) رواه البخاري باب الجهاد، ابن حنبل 140/3.

(3) أخرجه أبو داود.

(4) انظر محمد بن عبد الله الأزدي، فتوح الشّام، ص12.

واجباً أخلاقيّاً، يضع الاهتمام بالبيئة في إطار فلسفة "الجماليّات" أو "جماليّات البيئة" أو "الجماليّات الخضراء". ولئن اعتمد الفلاسفة المحدثون[1] في علم الجماليات على من تقدّمهم من الفلاسفة الذين رفعوا الطّبيعة إلى أرقى المراتب. فإنهم، في الوقت ذاته، عبّروا عن سخطهم على من ينتهك هذه الطّبيعة ويعتدي عليها باسم "ضرورات" التّقدّم التكنولوجي أو المادي، حتى أنّ دعوات "العودة إلى الطبيعة" التي شهدتها السّتينيات من القرن الماضي وما تزال تشهدها الدّول الصناعيّة تكاد تصل إلى ثورة تتّخذ أبعاداً سياسيّة واقتصاديّة وفلسفيّة.

فمحاربة "التّلوّث" لا تقتضيه المصلحة الماديّة للبشر وحسب بل إنّه أمر مرذول أخلاقيّاً ودينيّاً في حالة الإسلام. ولعلّ إعطاء المحافظة على البيئة هذا البعد الدّيني هو الذي يجعل الأمر أبعد أثراً وأشمل مضموناً في مجتمعاتنا حيث ما يزال للدّين أثره البعيد. "فالأخلاقيات الجديدة" عندنا تشمل الدّين والجمال جميعاً. أليس من تراثنا القول: "إنّ الله جميل يحبّ الجمال"[2].

أمّا في الأدب والفلسفة فليس أجدر بالدّراسة والبحث من ابن طفيل (ت1184) من الطّبيعة في كتابه حي بن يقظان وهو كتاب استوحى منه أكثر من كاتب وفيلسوف في الشّرق والغرب دور التّفكير العقلي في التّعرّف الى الله Y. وابن طفيل جدير بدراسة موسّعة عند التّحدّث عن البيئة في زماننا هذا. ولئن اقتصرت في هذا المقام على إشارات موجزة إلى حديث ابن طفيل عن البيئة فإنني واعد نفسي بدراسة أوسع أتوفر لها قريباً إن شاء الله.

فبطل ابن طفيل في قصة حي بن يقظان يبدأ حياته بالحديث عن شغفه بأمّه الظبية. فتراه يتحدّث عنها بحنان وعطف ووفاء الابن البار لأمّه وأنّه معطاء ببنات جنسها، بل إنّه يرى في حيوانات الجزيرة النّائية التي تربّى فيها

---

(1) نذكر من هؤلاء ألن كارلسون، ومارتن سيل وناتالي بلون.

(2) رواه مسلم.

أسرته وإخوانه وأخواته في الخلق، ويستدل بهم جميعاً على حكمة الله في مخلوقاته.

فاذا انتقل إلى النّظر في الماء والنّار والهواء والشّمس والكواكب باعتبارها مصادرللحياة، فنرى حيّ ينظر في الشّمس وما تبعث من دفء وحرارة ثمّ ينظر إلى النّار وما توفّره من مساعدة على استمرار الحياة .. فإذا به يرفع البيئة المحيطة به إلى مرتبة الآيات الكبرى لواحد الوجود "والواجب الوجود". وهكذا ينتقل حيّ من عالم المشاهدة والحسّ ليستدلّ به إلى عالم ما وراء هذه الطّبيعة.

فإذا ما أدرك حيّ هذا النّظام المتناسق والمتكامل أدرك أنّ هذا الكون - أو "عالم الكون والفساد"، كما يسمّيه إنما هو عالم واحد، وهو انعكاس لله الواحد Y.

وابن طفيل في كلّ كتابه الرّائع يستشهد بآيات القرآن الكريم استشهاداً ينمّ عن عمق إيمان المؤلّف بالله Y وضلوعه في معرفة كتابه المنزل.

غير أنّ ألصق ما في قصة حيّ بن يقظان من نصوص بموضوعنا هو ما جاء في الفصول الأخيرة من القصّة حيث يقول من مجال الحفاظ على أنواع النبات والحيوان فلا يستهلك منها إلا حاجته:

"... ينبغي له ... أن يتثبت ويتخيّر منها (أي من النّباتات التي يحتاج إليها) ما لم يكن في أخذه كبير اعتراض على فعل الفاعل، وذلك مثل لحوم الفواكه التي تناهت في الطّيب، وصلح ما فيها من البزر لتوليد المثل على شرط التحفّظ بذلك البزر، بأن لا يأكله ولا يفسده ولا يلقيه في موضع لا يصلح للنّبات، مثل الصّفاة والسّبخة ونحوهما. فإن يعدّر عليه وجود مثل هذه الثّمرات ذات الطّعم الغاذي، كالتّفاح والكمثرى والأجاص ونحوها، كان له عند ذلك أن يأكل إمّا من الثّمرات التي لا تغدو منها إلّا نفس البزر، كالجوز والقسطل، وإمّا من البقول التي لا تصل بعد حدّ كمالها. والشّرط عليه في هذين أن يقصد أكثرهما

وجوداً وأقواها توليداً ، وأن لا يستأصل أصولها ولا يفنى بزرها. فإن عدِم هذه، فله أن يأخذ من الحيوان أو من بيضه، والشّرط عليه في الحيوان أن يأخذ من أكثره وجوداً، ولا يستأصل منه نوعاً بأسره"[1].

ويتوسّع ابن طفيل بيان السّلوك البيئي السّليم فيقول:" إنّ على الإنسان أن يلزم نفسه إذا رأى "ذا حاجة أو عاهة أو مضرّة، أو ذا عائق من الحيوان أو النّبات، وهو يقدر على إزالتها عنه إلّا ويزيلها. فمتى وقع بصره على نبات قد حجبه على الشّمس حاجب أو تعلّق به نبات آخر يؤذيه، أو عطش عطشاً يكاد يفسده أزال عنه ذلك الحاجب إن كان ممّا يُزال، وفصل بينه وبين ذلك المؤذي بفاصل لا يضرّ المؤذي، وتعهده بالسّقي ما أمكنه."

"ومتى وقع بصره على حيوان قد أرهقه سبعٌ أو نشب به ناشب، أو تعلّق به شوك، أو سقط في عينيه أو أذنيه شيء يؤذيه ، أو مسّه ظمأ أو جوع، تكفّل بإزالة ذلك كلّه عنه جهده، وأطعمه وسقاه."

"ومتى وقع بصره على ما يسيل إلى سقي نبات أو حيوان وقد عاقه عن ممرّه ذلك عائق، من حجرٍ سقط فيه، أو جرفٍ عنها عليه، أزال ذلك كلّه عنه..."

"... كما ألزم نفسه دوام الطّهارة وإزالة الدّنس والرّجس عن جسمه والاغتسال بالماء في أكثر الأوقات، وتنظيف ما كان من أظفاره وأسنانه ومغابن بدنه، وتطييبها بما أمكنه من طيّب النّبات وصنوف الدّواهن العطرة، وتعهّد لباسه بالتّنظيف والتّطييب حتى كان يتلألأ حسناً وجمالاً ونظافة وطيباً"[2].

وهكذا يجعل ابن طفيل بطل قصّته نموذجاً للإنسان المحافظ على البيئة والمتعهّد لها بالرّعاية التي عهد الله بها إليه.

---

(1) انظر ابن طفيل، حي بن يقظان، تقديم د. فاروق سعد ، الطّبعة الخامسة، بيروت، منشورات الآفاق الجديدة، د.ت.، ص 195.

(2) راجع ابن طفيل، مذكور سابقاً، ص 198-199.

وبعد فهذا غيض من فيض في ما يتضمنه تراثنا الإسلامي إذا أردنا أن نستوحيه لإصلاح حاضرنا البيئي. والسّلام عليكم.